وقفات رمضانية

الصوم والإخلاص « 1 »

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن حديث اليوم سيدور حول فضيلة الإخلاص، وأثرِ الصوم في اكتسابها.

وقبل الدخول في أثر الصوم في اكتساب الإخلاص يحسن الوقوف عند الإخلاص من حيث مفهومه، وأهميته.

معاشر الصائمين: أصل الإخلاص في اللغة مادة خَلُصَ، والخالص: هو مازال عنه شوبُه بعد أن كان فيه.

والإخلاصُ في الشرع: هو تصفيةُ العمل من كل شائبة تشوبه.

ومدارُ الإخلاص على أن يكون الباعثُ على العمل امتثالَ أمرِ الله، وإرادتَه

-عز وجل- فلا يمازج العملَ شائبةٌ من شوائب إرادة النفس: إما طلبُ التزيُّن في قلوب الخلق، وإما طلبُ مدحهم والهربُ من ذمهم، أوطلبُ تعظيمهم، أو طلبُ أموالهم أو خدمتِهم ومحبتِهم، وقضائهم حوائجه، أو غيرُ ذلك من العلل، والشوائبَ التي يجمعها: إرادةُ ما سوى الله في العمل؛ فهذا هو مدار الإخلاص.

ولا حرج بعد هذا على من يطمح إلى شيء آخر، كالفوز بنعيم الآخرة، أو النجاة من أليم عذابها.

بل لا يذهب بالإخلاص -بعد ابتغاء وجه الله- أن يخطر في بال العامل أن للعمل الصالح آثاراً طيبةً في هذه الحياة الدنيا كطمأنينةَ النفس، وأمْنها من المخاوف، وصيانتها عن مواقف الذل والهون، إلى غير ذلك منَ الخيرات التي تعقب العمل الصالح، ويزداد بها إقبال النفوس على الطاعات قوةً إلى قوة.

هذا هو مفهوم الإخلاص.

أما أهميته فيكفي أنه شرط لقبول العبادة؛ فالعبادة تقوم على شرطين هما: الإخلاص لله، والمتابعة للرسول -صلى الله عليه وسلم- قال الله -تعالى-: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ».

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «يقولَ اللهَ -تعالى-: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ فمن عمل عملاً، فأشرك فيه غيري -فأنا منه بريء، وهُوَ للذي أشرك»رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- متحدثاً عن الإخلاص وفضله وأهميته: «بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب رحى القرآن الذي تدور عليه رحاه».

إلى أن قال -رحمه الله-: «قال -تعالى- في حق يوسف: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ».

فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور المحرمة، والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله، والإخلاص له بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها.

فإذا ذاق طعم الإخلاص، وقوي قلبه -انقهر بلا علاج».

معاشر الصائمين هذا هو مفهوم الإخلاص، وذلك شيء من أهميته وفضله.

هذا وإن للصيام أثراً عظيماً في تربية النفوس على فضيلة الإخلاص، وألا يراعى في الأعمال غيرُ وجهِ الله -جل وعلا-.

ذلكم أن الصائم يصوم إيماناً واحتساباً، ويدع شهوته وطعامه وشرابه من أجل الله -تعالى- وأيُّ درسٍ في الإخلاص أعظمُ من هذا الدرس؟

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

قال ابن حجر -رحمه الله- قوله: «إيماناً»: أي تصديقاً بوعد الله بالثواب عليه، و«احتساباً»: أي طلباً للأجر، لا لقصد آخر من رياء ونحوه» ـ

وفي البخاري -أيضاً- من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك؛ يترك طعامه وشرابه، وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها».

قال ابن حجر -رحمه الله- في شرح الحديث: «قوله: «يترك طعامه وشرابه، وشهوته من أجلي» هكذا وقع هنا، ووقع في الموطأ «وإنما يذر شهوته» الخ... ولم يصرح بنسبته إلى الله، للعلم به، وعدم الإشكال فيه».

وقال -رحمه الله-: «وقد يفهم من صيغة الحصر في قوله: «إنما يذر» الخ... التنبيه على الجهة التي بها يستحق الصائم ذلك، وهو الإخلاص الخاص به، حتى لو كان ترك المذكورات لغرض آخر كالتخمة لا يحصل للصائم الفضل المذكور» ا-هـ

معاشر الصائمين: هكذا يربينا الصوم على فضيلة الإخلاص؛ فالصومُ عبادةٌ خفيةٌ، وسرٌ بين العبد وربه، ولهذا قال بعض العلماء: الصوم لا يدخله الرياء بمجرد فعله، وإنما يدخله الرياء من جهة الإخبار عنه.

بخلاف بقية الأعمال؛ فإن الرياء قد يدخلها بمجرد فعلها.

ولا ريب أن الإخلاص من أعظم الخصال، وأحمد الخلال إن لم يكن أعظمها وأحمدها.

ثم إن للإخلاص آثارَهُ العظيمةَ على الأفراد بخاصة، وعلى الأمة بعامة، فللإخلاص تأثير عظيم في تيسير الأمور، فمن تعكست عليه أمورُه، وتضايقت عليه مقاصدُه -فليعلم أنه بذنبه أصيب، وبقلة إخلاصه عوقب.

والإخلاص هو الذي يجعل في عزم الرجل متانةً، ويربط على قلبه؛ فيمضي في عمله إلى أن يبلغ الغاية.

وكثيرٌ من العقبات التي تقوم دون بعض المشروعات لا يساعدك على العمل لتذليلها إلا الإخلاص.

ولولا الإخلاص الذي يضعه الله في نفوس زاكيات لَحُرِمَ الناسُ من خيرات كثيرة تقف دونها عقبات.

أيها الصائمون: قد يُخِل الرجل في بعض الأعمال، ويتغلب عليه الهوى في بعضها؛ فيأتي بالعمل صورةً خاليةً من الإخلاص.

والذي يرفع الشخص إلى أقصى درجات الفضل والمجد إنما هو الإخلاص الذي يجعله الإنسانُ حليفَ سيرته؛ فلا يُقْدِم على عمل إلا وهو مستمسك بعروته الوثقى.

ولا تبالغ إذا قلت: إن النفسَ التي تتحرر من رق الأهواء، ولا تسير إلا على وفق ما يمليه عليها الإخلاص هي النفسُ المطمئنة بالإيمان، المؤدبة بحكمة الدين، ومواعظه الحسنة.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: «وإذا كان العبد مخلصاً لله اجتباه ربه؛ فأحيا قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف ضد ذلك.

بخلاف القلب الذي لم يُخْلص لله؛ فإن فيه طلباً، وإرادةً، وحباً مطلقاً؛ فيهوى كل ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه كالغصن أيُّ نسيم مرَّ به عطفه وأماله» ا-هـ

وللحديث بقية -إن شاء الله- في الليلة القادمة، اللهم ارزقنا الإخلاص في ما نأتي وما نذر، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد.

فيها أكثر من غيرها..ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجتهد في العشر الأواخر مالا يجتهد في غيرها» رواه مسلم.

وكان (إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي المسند عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يخلط العشرين بصلاة ونوم فإذا كان العشر شمر وشد المئزر.

أيها الناصح لنفسك:

- تذكر أنها عشرة ليال فقط، تمر كطيف زائر في المنام، تنقضي سريعا، وتغادرنا كلمح البصر، فليكن استقصارك المدة معيناً لك على اغتنامها.

- تذكر أنها لن تعود إلا بعد عام كامل، لا ندري ما الله صانع فيه، وعلى من تعود، وكلنا يعلم يقينا أن من أهل هذه العشر من لا يكون من أهلها في العام المقبل - أطال الله في أعمارنا على طاعته -، وهذه سنة الله في خلقه (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) (الزمر:30).

وكم أهلكنا الشيطان بالتسويف وتأجيل العمل الصالح، فها هي العشر قد نزلت بنا أبعد هذا نسوف ونُؤجل؟

تذكر أن:

غدا توفى النفوس ما كسبت

ويحصد الزارعون ما زرعوا

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم

وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا

- تذكر أن فيها ليلة القدر التي عظّمها الله، وأنزل فيها كتابه، وأعلى شأن العبادة فيها فـ (من قام ليلةَ القدر إيمانا واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه) أخرجه الشيخان. والعبادة فيها تعدل عبادة أكثر من ثلاث وثمانين سنة قال تعالى: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) (القدر:3)، فلو قُدر لعابد أن يعبد ربه أكثر من ثلاث وثمانين سنة ليس فيها ليلة القدر، وقام موفق هذه الليلة وقُبلت منه، لكان عمل هذا الموفق خير من ذاك العابد، فما أعلى قدر هذه الليلة، وما أشد تفرطنا فيها، وكم يتألم المرء لحاله وحال إخوانه وهم يفرطون في هذه الليالي وقد أضاعوها باللهو واللعب والتسكع في الأسواق، أو في توافه الأمور.

- تذكر أنك متأسي بخير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم بعض هديه خلال العشر، فاجعله حاملاً لك لاغتنام هذه الليالي الفاضلة.

أعمال يجتهد فيها الصادقون خلال العشر:

- القيام في هذه الليالي، وفضل قيامها قد جاءت به النصوص المعلومة، واجتهادات السلف يعلمها كل مطلع على أحوالهم، بل ومن عباد زماننا من سار على هديهم، يذكر أحدِ الإخوة أن رجلا معروفاً في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم يصلي التراويح مع الإمام ثم يتنفل بالصلاة إلى صلاة القيام ثم يصلي مع الجماعة صلاة القيام ثم يصلي إلى قبيل الفجر، هذا ديدنه كل عام. أرأيت الهمة؟ هل عرفت كم نحن كسالى؟

ومن مشايخنا من يختم القرآن في هذه العشر كل ليلتين مرة في صلاة القيام.

ويبقى الأمر المهم ما الذي جعلهم يقومون وننام؟ وينشطون ونكسل؟

إنه الإيمان واليقين بموعود الله الذي وعد به أهل القيام، ولهذه الليالي مزايا على غيرها، أضف إلى اللذة التي تذوقوها حتى آثروا القيام، وما أجمل ما قاله بعض العلماء -عن لذة المناجاة - حيث قال: لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم.

ولتعلم يا رعاك الله أن البعد عن الذنوب والمعاصي أثر في التوفيق للطاعة، فالطاعة شرف ورحمة من الرحمن لا ينالها إلا أهل طاعته.

فلندع عنا التواني والكسل، ولنسع للجد في العمل، فعما قليل نرحل، وبعد أيام نغادر هذه الدنيا، ونخلفها وراءنا ظهريا، فلماذا التسويف؟

اغتنمها في الدعاء، فدعاء ليلة القدر مستجاب، تذكر حاجتك لربك ومولاك، فمن يغفر الذنوب إلا هو؟

ومن يُثيب على العمل الصالح إلا الكريم سبحانه؟

ومن ييسر العسير، ويحقق المطلوب ويجبر المكسور إلا صاحب الفضل والجود؟

فاغتنم هذه الفرصة فرب دعوة صادقة منك يكتب الله لك رضاه عنك إلى أن تلقاه، ولا تنسى الدعاء لإخوانك فهو من علامات سلامة القلب، وأيضاً الدعاء للمسلمين من الولاة والعامة، ولا تحتقر دعوة فرب دعوة يكون فيها الخير لأمتك.

(ساعات السحر) في هذه العشر كثير من الناس يكونون مستيقظين هذه الساعة، وهو وقت شريف مبارك، وتعجب ممن يُمضون هذه الساعة في الأحاديث الجانبية أو لا يرتبون قضاء حاجتهم الضرورية قبل هذا الوقت فينشغلون بها عن اغتنامه،

أما الذين عرفوا قيمة هذه الساعة وعلو منزلتها فلا تجدهم إلا منكسرين ومخبتين فيها، قد خلا كل واحد منهم بربه يطرح ببابه حاجته، ويسأله مطلوبه، ويستغفره ذنبه، ألا ما أجلها من ساعة، وما أعظمه من وقت، فأين المغتنمون له؟

احرص على اعتكاف العشر كلها - دون التفريط بواجب من حق أهل وولد -، فإن لم تستطع فلا أقل من الليالي أو ليالي الوتر، فقد كان هذا هديه عليه الصلاة والسلام في هذا العشر، ويُشرع للأخت المسلمة أن تعتكف كالرجال إذا تهيأت لها الأسباب وأمنت على نفسها، أو على الأقل الليالي.

ومن بشائر الخير ما نراه من كثرة المعتكفين والمعتكفات في الحرمين وفي مساجد الأحياء في مدن وقرى العالم الإسلامي، ولتحرص على اغتنام هذا الوقت بالطاعة، وملئه بما ينفع ومجاهدة النفس على ذلك.

أوصيك أخي بتطهير قلبك فهذه أيام الطهارة والتسامح والتجرد لله تعالى، واجعل حظ النفوس جانباً، فأنت ترجو المغفرة، وتأمل عفو ربك، وليكن شعارك العفو عن الناس وعمن ظلمك، واجعل هذا من أرجى أعمالك هذه الليالي، ولله در ابن رجب في لطيفته يوم قال تعليقا على حديث عائشة» اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عني» إذ يقول: من طمع في مغفرة الله وعفوه فليعف عن الناس فإن الجزاء من جنس العمل.

اجعل بعض مالك للصدقة ولا تحتقر القليل فهو عند الله عظيم مع صدق النية، وتذكر أن المال غاد ورائح، وما تنفقه باق لك، وأنت ترجو قبول دعائك هذه الليالي وللصدقة أثرها في قبول الدعاء والإثابة على العمل، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه.